مادة الأدب الأموي (قسم النثر): د. زاهر الشمّاع

المحاضرة الثالثة المقرَّرة بتاريخ: الأحد ٢٠٢٠/٣/٢٩م

الصنف الثاني من خطب العصر الأموي:
ب– خُطَب السياسة والحُكْم:

مقدمة:

استطاع الحزب الأموي الحاكم بحنكة حكَّامه الأوائل وأمرائه الولاة منهم والقادة، أن يستمرَّ زُهاءَ قرنٍ من الزمان مسيطراً على حكم الدولة الإسلامية الآخذة بالتوسع والنفوذ، ولعل الله تعالى قيَّض هؤلاء الرجال الذين حافظوا على وحدة الدولة واستمرارها وتوسعها مع قمع المعارضات التي ظلت تشتعل طيلة مدة حكمهم هنا وهناك، بغض النظر عن المخالفات التي ارتكبوها بذريعة الحفاظ على التشريع الإسلامي ونفوذه في الدولة، ولا ندري كُنْهَ نِيَّات أولئك الحكام، ولنا الوقائع والمظاهر فحسب.

وقام أولئك الحكام: الخلفاء منهم والولاة والقادة، بما امتلكوه من قوة في البيان والفصاحة والبلاغة، فضلاً عن قوتهم السياسية، بإنشاء الخطب التي أَثَّرت في الرعية أيما تأثير، واستطاعت رَدَّ الخارجين منهم وبسط النفوذ والقوة على الرعية لكيلا يفكروا بالخروج عن الطاعة، ومن ثَمَّ دارت معاني خطبهم على محاور فكرية عدة، سنأتي على ذكرها في موضعها لاحقاً.

واستمرت المعارضات هنا وهناك دون أن تستطيع الإطاحة بالحكم الأموي، وبرز من هذه الأحزاب المعارِضة: حزب الشيعة، وحزب الخوارج، وحزب الزبيريين.

خُطَب السياسة والحُكْم (تعريف بها):

أصابت الخطابة السياسية في عصر بني أمية حظاً بعيداً من الازدهار والرقي، وعلى الرغم من أن بواكير الخطابة السياسية قد وجدت منذ صدر الإسلام، إلا أن العصر الأموي كان – بحق — عصرها الذهبي، ففي هذا العصر اكتملت لها أسباب النماء والازدهار، حتى غدت فنّاً أدبياً راقياً، يفوق سائر الفنون الأدبية الأخرى التي كانت في ذلك العصر.

وتتناول الخطب السياسية كل ما له صلة بأحوال الدولة وشؤونها العامة، الداخلية منها والخارجية، ومدارها الأوَّل على الحُكْم وما يتصل به، فهي تتعرض للكلام عمن هو صاحب الحق في تولي أمور القوم، والصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها الحاكم، والسياسة التي ينبغي اتباعها في الحكم، وواجبات كل من الرعية والراعي، وحقوقهما، فضلاً عن أمور أخرى قد تكون طارئة.

عوامل ازدهارها:

تضافرت عوامل عدّة أدَّت إلى ازدهار الخطابة السياسية في العصر الأموي، وهذه العوامل هي:

١– الأحداث السياسية التي حفل بها العصر الأموي، والفتن والثورات الداخلية على حكم الأمويين، واستئثار بني أمية بالحكم، وطمع أطراف أخرى تعارضهم في الخلافة، فضلاً عن الدوافع العصبية القبلية العنيفة التي حدثت بسببها فتن قبلية لم تهدأ ثائرتها طوال عصر بني أمية. وتمخّضت من هذه الأحداث والظروف حركة خطابية نشيطة وظهر بسببها عدد وفر من الخطباء، وكان لكل من الفرق والقبائل المتنازعة خطباؤه الناطقون بلسانه.

٢- النظام السياسي الذي ساد في هذا العصر، فقد انتقل العرب من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحياة المتحضرة، وخضعوا كلهم لدولة واحدة ذات نظم سياسية وإدارية مستقرة، بعد أن كانوا قبائل متفرقة لا تخضع لقانون يوحد بينها، واقتضى هذا التنظيم السياسي أن يتّصل الحاكم برعيته ليطلعها على خطة الحكم، أو ليسترشد بها في الملمّات، وكانت الخطابة في ذلك العصر خير وسيلة لاتصال الراعي برعيته، فكثرت خطب السياسة وازدهرت.

٣- قيام الأحزاب السياسية، واتخاذ دعاتها الخطابة أداة لنشر دعوتهم لأحزابهم واستمالة الأنصار إليهم، فكان خطباء كل حزب يعرضون بواسطتها مبادئ حزبهم السياسية، وينقدون الأحزاب الأخرى، وأدى هذا إلى اهتمامهم بخطبهم السياسية وسعيهم إلى الارتقاء بها.

هذه العوامل المتعددة أدت إلى نشاط الخطابة السياسية في عصر بني أمية، وإلى النهوض بهذا الفن فكرياً وفنيّاً، وكان من مظاهر ازدهار الخطابة السياسية: وفرة خطباء السياسة الذين ظهروا في هذا العصر، ونبوغ طائفة من ألمع خطباء السياسة الذين عرفهم تاريخنا الأدبي في جميع عصوره.

نماذج منها:

١- خطب الحزب الأموي (وهو الحزب الحاكِم في الدولة الأموية): (خطبة الخليفة عبد الملك بن مروان في أهل الكوفة عام ٧١هـ)، و(خطبة زياد بن أبيه في أهل البصرة والياً لمعاوية بن أبي سفيان عام ٤٥هـ)، و(خطبة الحَجَّاج بن يوسف الثقفي في أهل الكوفة والياً لعبد الملك بن مروان عام ٧٥هـ).

من خطب الأحزاب المعارِضة:

٢- خطب الشيعة: أ- قبل مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما: (خطبة الحسن بن علي رضي الله عنهما في أهل الشيعة بعد تنازله عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان عام ٤١هـ).

ب- بعد مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما: (خطبة عُبَيد الله بن عبد الله المرّيّ في أهل الشيعة من التَوَّابين نحو عام ٦٥هـ، بعدما قُتِلَ الحسين بن علي رضي الله عنهما).

٣- خطب الخوارج: (خطبة قَطَرِيّ بن الفُجاءة).

٤- خطب الزُّبَيْرِيِّين: (خطبة عبد الله بن الزُّبَيْر في أهل مكة عام ٧١هـ حين أتاه خبر قتل أخيه مصعب بن الزبير بالعراق).

وسنقف بالدراسة والتحليل عند نموذج واحد لكل حزب من الأحزاب السابقة.

١- خطب الحزب الأموي (وهو الحزب الحاكِم في الدولة الأموية):

مقدمة:

أفاد أصحاب الحزب الأموي الحاكم من الخطابة في تثبيت دعائم حكمهم، كما أفادوا من الشعر، واستطاعوا في أغلب الأحيان أن يحققوا غايتهم من ذلك لما كان لبعض خلفائهم وولاتهم من قوة في الفصاحة والبيان.

وتعدَّدت خطب أصحاب الحزب الأموي، فقد كان خلفاؤه وولاته وقواده يجعلون من الخطابة ممهداً يوطئون به أكناف حكمهم.

وإذا نظرنا في نماذج خطب الحزب الأموي التي أشرنا إليها، وجدنا أنها قيلت في أهل العراق من الكوفة أو البصرة، وهذا يقودنا إلى تنبيه مهم على طبيعة بيئة العراق وأهله آنذاك، فكان هذا البلد بؤرة فتنٍ ومثار اضطراب سياسي ومعارضات للحكم الأموي، ومن ثَمَّ لا نستغرب شدة وقوة خطب الحزب الأموي في أهل العراق، وذلك لضبط الفتن وإخماد نيران المعارضات الشديدة هناك. فثمة بيئات أخرى في الدولة الأموية

مترامية الأطراف، تختلف طبيعتها عن طبيعة أهل العراق آنذاك، فثمة بيئة البادية كبوادي نجد وبادية الشام، وسنجد خطبهم في خطب المناسبات الاجتماعية في المفاخرات التي عادت إلى الظهور في العصر الأموي. وثمة بيئة المراكز الحضرية والمدن الرئيسة في الدولة، وأهمها دمشق عاصمة الدولة ومركز الخلافة، والحجاز، ...وطبيعتها مختلفة عن بيئة البوادي، ففيها الأمن والرفاه والتحضُّر. وثمة بيئة المدن المفتوحة في أطراف الدولة الآخذة بالتوسع شرقاً وغرباً، في شرق العراق من بلاد فارس وفي غرب مصر وصولاً إلى الأندلس، وفي هذه الحدود والثغور تختلف طبيعة البيئة وأهل تلك المدن البعيدة عن مركز الدولة، وذاك بسبب الاختلاط بالأعاجم وتدفق الأموال من الفتوح...إلخ. ونخلص إلى استنتاج تنوُّع بيئي وحضري واجتماعي وسياسي في الدولة الأموية ينبغي أن يُنظَرَ إليه عند دراسة أدبهم، فكل بيئة لها سمات لأدبها تختلف عمَّا سواه.

ودراسة الأدب تنطلق من فهم: البيئة ثم المضمون الفكري للأديب (يتضمَّن هَمَّهُ) ثم القالب اللغوي الذي صاغ نَصَّهُ عليه. فتكون الدراسة المضمونية (الفكرية) لرصد المعاني التي اهتمَّ بها الأديب وهي بنت بيئتها، والدراسة الشكلية (الفنية) لرصد لغة الأديب وهي تخدم هَمَّهُ.

وإذا لحظنا التنوُّع البيئي الذي حدث في العصر الأموي على مختلف صعد الحياة، فإننا لا نستغرب خروج الأديب عن حالة الوقار أو الجلال الذي لَفَّ صدر الإسلام والجدِّيَّة آنذاك لتأسيس دولة جديدة وطروء دين جديد ومنظومة فكرية جديدة على الحياة الجاهلية، ففي العصر الأموي أصبح الخطيب يستمدُّ معانيه من مصادر متنوعة تنوُّع بيئته، ولم يعد يكتفي بالمصدر الإسلامي مادةً لنصوصه، فنجده يأخذ من موروثه القديم الجاهلي كالمثل والشعر وبعض المعاني القديمة، ونجده يستمدُّ من الدين الإسلامي تارةً كالمعاني القرآنية والاقتباس القرآني أو التضمين القرآني وما إلى ذلك، وتارةً يأتي بمعانٍ جديدة دون أن يكون لديه أدنى مشكلة...إلخ.

ومن ثَمَّ يأتي رصدنا النصوص من حيث معانيها ومن حيث لغتها.

– وفي رصدنا النصوص بحسب موضوعاتها: نجد هَمَّ الخطيب في الخطابة الدينية رَدَّ الضالين والغافلين إلى جادة الدين الصحيحة، وفي الخطابة السياسية: صنَّفنا النصوص تبعاً للأحزاب السياسية التي ظهرت وسادت في ذلك العصر، فرصدنا الحزب الأموي الحاكم، وكان هَمُّ الخطيب (خليفة أو والٍ) نصرة فئته وحزبه وإظهار الولاء لبني أمية والانتصار لهم وفرض هيمنتهم، مع ما يستلزمه هذا من إظهار القوة والشدة والنفوذ. أما في سائر الأحزاب السياسية فسنرى اختلافاً في معاني الخطباء ولغتهم في نصوصهم، فسنرى في حزب الشيعة كيف ظهر تطوُّر في الفكر السياسي أدَّى إلى نزعة الجدل السياسي حول فكرة الحُكْم، مع لحظ الفرق بين خطب ما قبل مقتل الحسين، وخطب ما بعد مقتل الحسين، وسنلحظ أنَّ خُطبة الحسن كانت رصينة، معتدلة في انفعالها، قائمة على الجدل السياسي ومحاورة الرعية في فكرة الحُكْم.

– لابد من أن نفهم طبيعة الأحزاب السياسية في العصر الأموي، ونميِّز بين ما قام منها على أرضية دينية، وما لم يقم عليها، وبين المذاهب والفئات الدينية الأخرى التي لا شأن لها بالسياسة.

فالحزب الاموي الحاكم قام على الدين الإسلامي وتمسَّك به فهو عِماد الحُكْم، واستند عليه في ترسيخ دعائم سلطته، ولذلك استمرَّ هذا الحزب زهاء قرنٍ من الزمان.

وحزب الشيعة استمرَّ باستناده إلى الدين الإسلامي والولاء لآل بيت النبي (ص) فترة طويلة أيضاً، لكن دون أن يستطيع السيطرة على حُكْم الدولة الإسلامية.

أما حزب الخوارج وهم الذين خرجوا في الأصل على علي بن أبي طالب وشيعته، فانقسموا إلى فئات، أشهرها: الأزارقة، والإباضية، والنجدية، والصُّفْرية، والشُّراة. واختلفت المصادر فيما بعد في العدد الذي وصلت إليه فئات الخوارج، فهي من ٤ إلى ٣٠ فئة. وكان هذا التعدُّد نتيجة اختلاف في الآراء حول تفصيلات دينية وسياسية، ولذلك سقط هذا الحزب بسبب تعدُّد فئاته وتقسُّمه.

أما الحزب الزبيري فلم يقم على فكرة دينية، بل سياسية، لذلك كان واهياً ولم تَطُلْ مدته، رغم الدعوة لابن الزبير بالخلافة في الحجاز، وإرسال أخيه مصعب إلى العراق يدعو لأخيه.

أما الفئات الدينية التي ظهرت في العصر الاموي، كالمعتزلة، والمرجئة، والرافضة، والجهمية، والقَدَرية، فلا علاقة لها بالسياسة أو بالحُكْم، ولم تتدخَّل بشؤون حُكْم الدولة ولا الجدل السياسي آنذاك.

فبالنتيجة:

لدينا أحزاب سياسية اعتمدت الدين: الأموي الحاكم، الشيعة، الخوارج (بفئاته: الأزارقة والإباضية والصُّفْرية والنجدية والشُّراة).

وأحزاب سياسية محضة لم تعتمد على الدين: الزبيري.

وفئات دينية لا علاقة لها بالسياسة: كالمعتزلة والمرجئة والرافضة والجهمية والقَدَرية.

– ونعود لننظر إلى نصوص خطب الأحزاب السياسية بعد هذا التمهيد المهم، وفق البيئة، وهَمّ الخطيب، والقالب اللغوي الذي صاغ نَصَّهُ عليه.

سنتوقف بالدراسة والتحليل عند نموذج واحد لخطب الحزب الأموي الحاكِم، وهي خطبة زياد بن أبيه في أهل البصرة والياً لمعاوية بن أبي سفيان عام ٤٥هـ.

قَدِمَ زيادُ بنُ أبيه البَصْرَةَ والياً لمعاوية بن أبي سفيان سنة ٤٥هـ، وضمّ إليه خراسان وسجستان، فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها، وقيل: بل قال: «الحمد لله على إفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه. اللهم كما زدتنا نعماً فألهمنا شكراً.»

«أمّا بعدُ، فإن الجهالةَ الجهْلاء، والضلالةَ العمياء، والغَيّ الموفي بأهله على النارِ ما فيه سُفهاؤكُم، ويَشْتَملُ عليه حُلماؤكُم من الأمور العِظام، ينْبتُ فيها الصغيرُ، ولا ينحاشُ عنها الكبيرُ، كأنَّكم لم تقرؤوا كتابَ الله، ولم تسمعوا ما أعدَّ اللهُ من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذابِ الأليمِ لأهل معصيته في الزمن السرمد الذي لا يزول، أتكونون كَمَن طَرَفت عينَه الدُّنيا، وسدَّت مسامِعَه الشهواتُ، واختارَ الفانيةَ[1] على الباقية، ولا تذكُرون أنَّكم أحْدَثْتُمْ في الإسلام الحَدَث الذي لم تُسْبَقوا إليه من تَرْكِكُم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله، وهذه المواخيرَ[2] المنصوبةَ، والضعيفة المسلوبةَ في النَّهار المُبْصر، والعددُ غيرُ قليل.

ألم تكنْ منكُم نُهاةٌ تَمنَع الغُواةَ من دَلَجِ[3] الليلِ وغَارةِ النَّهار؟!

قَرَّبْتُمُ القرابة، وباعدْتُم الدِّينَ، تعتذِرون بغيرِ العُذْر، وتُغضون على المُختَلِس، أليس كلُّ امرئٍ منكم يَذُبُّ[4] عن سَفيهِهِ، صُنع من لا يخافُ عقاباً ولا يرجو مَعَاداً، ما أنتم بالحُلماءِ ولقد اتَّبَعتُم السُّفهاءَ، فلم يزَلْ بكم ما تَرَوْن من قيامِكُم دونهم، حتى انتَهَكُوا حَرمُ الإسلام، ثُمَّ أطرَقوا وراءكم كُنوساً في مكانِس الرِّيْب[5]، حرامٌ عليَّ الطعامَ والشرابَ حتى أُسَوِّيها بالأرضِ هَدْماً وإحْراقاً.

إنِّي رأيتُ آخر الأمرِ لا يصلُح إلا بما صَلَحَ به أوَّله، لينٌ من غيرِ ضَعْفٍ، وشدَّةٌ في غيرِ عنفٍ، وإنّي أقسمُ بالله لآخُذنَّ الوليَ بالمولى، والمقيمَ بالظاعنِ، والمُقبلَ بالمُدبرِ، والمطيع بالعاصي والصَّحيحَ منكم بالسَّقيمِ حتى يَلْقَى الرَّجُلَ منكم أخاهُ فيقول: انجُ سَعد فقد هَلَكَ سُعيدٌ[6]، أو تَستقيم لي قَناتُكم.

---

[1] الفانية: الدنيا.

[2] المواخير: جمع (ماخور)، وهو بيت الريبة أو ما شابه ذلك.

[3] دلج: الدخول في الليل.

[4] يذب: يدافع.

[5] مكانس الريب: يريد الاختباء في مخابئ المعصية والفساد.

[6] مثل يُضرب مراراً من الشدة والضيم.

إنَّ كذبةَ المنبرِ بَلْقاءُ مشهورةٌ، فإذا تعلَّقتم عليَّ بكذبة فقد حلَّت لكم معصيتي، فإذا سمعتموها منّي فاغتمزوها فيّ واعلموا أن عندي أمثالها.من نُقب منكم فأنا ضامنٌ لما ذهب منه، فإياي ودلجَ الليل فإني لا أُوتى بمُدلج إلا سفَكْتُ دمه، وقد أجّلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبرُ الكوفةَ ويرجع إليكم، وإياي ودعوى الجاهليةِ فإنّي لا أجدُ أحداً دعا بها إلا قطعتُ لسانَه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تَكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمَن غرّق قوماً غرّقناه، ومَن أحرقَ قوماً أحرقناه، ومَن نَقَبَ بيتاً نقبنا عن قلبه، ومَن نَبَشَ قبراً دفنّاه حيّاً فيه، فكفّوا عنّي أيديكم وألسنتكم أكففْ عنكم يدي ولساني ولا تظهر من أحد منكم ريبةٌ بخلاف ما عليه عامّتكم إلا ضربتُ عنقَه.

وقد كانت بيني وبينَ أقوامٍ إحَنٌ[٧]، فجعلتُ ذلك دَبْرَ أذُني وتحتَ قدمي، فمَن كان منكم مُحسناً فَلْيَزددْ إحساناً، ومن كان منكم مُسيئاً فَلْيَنْزِعْ عن إساءَتِه.

إنِّي والله لو عَلِمتُ أن أحدَكُم قد قَتَلَهُ السُّلُّ من بُغْضي لم أكْشِف له قناعاً، ولم أَهْتك له ستْراً حتى يُبْدي لي صفحته، فإذا فعلَ ذلك لم أناظِرْهُ[٨]، فاستأنفوا أمورَكم، وارعوا على أنفُسِكم، فرُبَّ مُبْتَئسٍ بقدومنا سَيُسَرُّ، ومَسرورٍ بقدومنا سَيبْتَئِسُ.

أيُّها الناس: إنَّا أصبحنا لكم ساسةً، وعنكم ذادةً[٩]، نَسُوسُكُم[١٠] بسلطان الله الذي أعطانا، ونذودُ عنكم بفيءِ الله الذي خوَّلنا، فلنا عَليكُم السَّمع والطَّاعَة، فيما أحببنا، ولكم علينا العدْل فيما وُلِّينَا، فاسْتوجبوا عَدْلنا وفَيْئنا بمُناصَحَتكم لنا، واعْلموا أنَّي مَهما قَصَّرتُ عنه فلن أقصِّر عن ثلاثٍ: لستُ مُحْتَجباً عن طالبِ حاجةٍ منكم ولو أتاني طَارقاً بلَيْلٍ، ولا حابِساً عطاءً ولا رزقاً عن إبَّانِه[١١]، ولا مُجمِّراً[١٢] لكم بَعْثاً، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذي تأوون إليه، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا به حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرّاً لكم. أسأل الله أن يعين كلاً على كل، وإذا رأيتموني أنفّذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله، وأيم الله إنَّ لي فيكم لَصَرْعَى كثيرةً فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صَرْعاي.»

- **حول الخطبة:**

مناسبتها:

كان معاوية بن أبي سفيان قد ولّى عبد الله بن عامر البصرة، لكن هذا الوالي عجز عن إقرار النظام في البصرة وفرض هيبة الدولة في هذه البلدة، فساءت فيها الأحوال، وتفشّت المعاصي، وغلب عليها السفهاء واضطرب حبل الأمن فيها، فرأى معاوية أن إقرار النظام في البصرة يفتقر إلى والٍ حازم محنّك، فاختار لها زياد بن أبي سفيان فقدّمها عام خمسة وأربعين للهجرة، وجمع الناس في مسجدها، ثمّ خطب فيهم هذه الخطبة المشهورة التي عرفت بالبتراء.

وقيل في **سبب تسميتها** بالبتراء: إن زياداً خالف فيها الطريقة المألوفة في ذلك العصر، فلم يستهلّها بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على النبي الكريم، أو لأنها كانت كالسيف البتّار في قوة تأثيرها وشدّة وقعها في نفوس سامعيها، وقد يكون هذا الرأي هو الراجح.

---

[٧] إحن: الضغينة المضمرة في القلب.
[٨] أناظره: انتظر عليه وأمهله.
[٩] ذادة: مدافعون.
[١٠] نسوسكم: نحكمكم.
[١١] إبَّانه: وقته.
[١٢] المجمِّر: من يبقي المقاتلين في بلاد الأعداء وعلى الثغور.

١- الدراسة المعنوية:

- معاني الخطبة وأهمّ أفكارها:

تعدّ خطبة زياد هذه نموذجاً للخطب السياسية في عصر بني أميّة، ولا نكاد نجد خطبة أخرى في هذا العصر توافرت لها من مميزات التجويد والتكامل ما وجدناه فيها، من حسن التقسيم، ومراعاة تسلسل الأفكار وتتابعها تتابعاً محكماً.

استهلّ زياد خطبته بتقريع أهل البصرة لانغماسهم في الغي والمعاصي، وذكّرهم بكتاب الله وما فيه من وعد ووعيد، ثم انتقل إلى إيضاح خطته في الحكم، ففصّل فيها تفصيلاً مسهباً، فبيّن أنه قد يأخذ البريء بالمذنب حتى تستقيم أمورهم، وأكّد عزمه على إنفاذ أمور ثلاثة: لن يحجب طارقاً أتاه بليل، ولن يحبس عن القوم عطاء ولن يؤخره عن حينه، ولن يحجز الجند في الثغور وأرض العدو. ولا ريب في أن تحقيق هذه الأمور كان كفيلاً بإرضاء جمهور المسلمين آنذاك.

ثم دعا القوم إلى طاعة أئمتهم من خلفاء بني أميّة الذين اختارهم الله تعالى لهم، فهم غياثهم وملاذهم، ولو أن شراً حاق بهم لعمّ البلاء المسلمين كافّة.

واختتم خطبته بالوعيد والتهديد، فقد فرغ من بيان ما للقوم عليه من حقوق وما له عليهم من واجبات، وكان من حقّه – بعد أن بيّن ذلك – أن يعاقب بالموت كل من تسوّل له نفسه النزوع إلى العصيان، فقد أُعذِر مَن أنذر.

وفي الخطبة بعد ذلك مميزات أخرى كثيرة، فإننا نقع فيها على الأداء العربي الواضح المشرق، ويذهلنا ما فيها من إيجاز التعبير وإحكام الصياغة وجمال التصوير، ويتجلى الأثر الإسلامي في أسلوب الخطبة وفي بعض معانيها.

ويمكن إيجاز **أهم الأفكار** في الخطبة بما يأتي:

١. تصوير ما آلت إليه حال البصرة من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عن تطبيق حدود الله، وتجسيم صور الفساد والمعاصي التي انتهت إليها حال الناس في البصرة، وتقريعهم لأنهم يعيشون ضلالاً يشبه ما كانت عليه حياة أسلافهم قبل الإسلام.
٢. بيان سياسة زياد في التعامل مع أهل البصرة، وخطّته في حكمهم.
٣. التهديد والوعيد لمن يعارضه.
٤. غضّ البصر عن المعارضة ما لم تكن مُعلنة، فإن كانت مُعلنة وقف لها بالمرصاد.
٥. تقرير حقّ الأمويين في الخلافة.
٦. مطالبة الرعيّة بالطاعة وترغيبهم بالعدل مقابل الطاعة.

- سمات المعاني:

اتسمت معاني الخطبة بالوضوح والسهولة، فأتت مفهومة، عميقة، مرتّبة، متسلسلة ومترابطة فيما بينها، كما كانت موجزة مكثّفة، غلب عليها الطابع السياسي، واحتوت بعض آثار الثقافة الإسلامية، والثقافة الجاهلية الموروثة.

٢- الدراسة اللغوية:

- **لغة الخطبة:**

اتسمت الألفاظ بالجزالة والقوة، تملأ الفم وتقرع الأذن، بما يناسب موضوع الخطبة ويلائم الموقف والحدث، واتسمت بالوضوح والبعد عن الغموض، كما اتسمت بالجدة، لارتباطها بموقف جديد استدعاها، واستطاع الخطيب أن يعطيها حقّها فعبّر عنها بكل دقّة مما جعلها قريبة من النفوس مقنعة للعقول.

وجاءت التراكيب مؤسسة على الألفاظ، واضحة لوضوحها، جزلة لجزالتها، متينة السبك، محكمة النسج، شديدة التلاحم.

وغلب الطول على جمل الخطبة، لما استدعاه الموقف من شرح وتفصيل، ولكنّ الخطيب حاول تقسيم الجمل الطويلة عن طريق العطف، كقوله: ((**لينٌ من غيرِ ضَعْفٍ، وشدَّةٌ من غيرِ وعنفٍ، ...، أقسمُ بالله لآخُذنَّ الوليَ بالولي، والمقيمَ بالظاعنِ، والمُقبلَ بالمُدبرِ، والمطيع بالعاصي والصَّحيحَ منكم بالسَّقيمِ**)).

- **الأسلوب:**

١. جنح الخطيب إلى الأسلوب الخبري الملائم لموضوع الخطبة ((**قرَّبتم القرابة وباعدتم الدِّين...**))، وأكثر من المؤكِّدات ((**فإنَّ الجهالة الجهلاء...**))، ولكن النص لم يخلُ من بعض الجمل الإنشائية (الأمر والنداء): الأمر: ((**فكفُّوا عني أيديكم...**))، النداء: ((**أيها الناس: إنَّا أصبحنا لكم ساسة...**))

٢. الإكثار من أسلوب الشرط ((**مَنْ غرَّق قوماً غرَّقناه، ومَنْ أحرق قوماً أحرقناه...**))، لأنه يناسب المقام بما يتضمنه من شرط وجزاء، وقد أدرك الخطيب أن هذا الأسلوب من أصلح الأساليب لمقام التهديد والوعيد، والشرح والتفصيل، والأمثلة في الخطبة كثيرة، منها في حديث الخطيب عن الجرائم التي ارتكبها أهل البصرة، والعقوبات التي أحدثها لكل جريمة من جرائمهم، وأفاد أيضاً من أسلوب التحذير ((**فإياي ودَلَج الليل...**)) لصلته الوثيقة بمعنى التهديد الذي ساد الخطبة، وجاء تحذيره مباشراً حيناً، ومفهوماً من السياق أحياناً أخرى ((**فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه،...، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه.**))

٣. قامت الخطبة على التعبير المباشر، ولا نجد فيها اهتماماً كبيراً بالخيال، لكنها – على الرغم من ذلك – لا تخلو من بعض الصور الفنية التي أتت فيها للتوضيح من جهة، كقوله: ((**الضلالة العمياء**)) للدلالة على شدّة الضلالة، وقوله: ((**النهار المبصر**)) للدلالة على وضوحه وجلائه، ولاستثارة المخاطبين من جهة أخرى، كقوله: ((**طَرَفت عينَه الدُّنيا، وسدَّت مسامِعَه الشهواتُ**)).

٤. في الخطبة عبارات مسجوعة، جاء السجع فيها عفو الخاطر، ((**فإنَّ الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء...**))، ((**غرَّقناه ... أحرقناه**))، وهذه سمة عامة في خطب صدر الإسلام والعصر الأموي.

٥. كثُرت المحسنات المعنوية في الخطبة، فمنها الطباق والمقابلة، وكان لهذه العناية بالتضاد والتقابل أثرٌ عظيم في توكيد المعاني وتعميق أثرها في نفوس السامعين. ((**قرَّبتم القرابة وباعدتم الدِّين...**))، ((**لآخذنَّ الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح منكم بالسقيم...**))، المقابلة: ((**لين من غير ضعف، وشدة في غير عنف**))، ((**فربَّ مبتئس بقدومنا سيُسَرّ، ومسرور بقدومنا سيبتئس**)).

٦. التأثر بالثقافة الموروثة، واتضح في تمثّل الخطيب بالمثل الجاهلي: ((**انجُ سعد فقد هلك سُعيد**)).

لقد اجتمعت لزياد في خطبته هذه عناصر الفنّ كلّها، فقد كان خطيباً مفوَّهاً ، استطاع أن يأتي في خطبته بالأفكار الواضحة المرتّبة، وأن يصوغها بألفاظ معبّرة جزلة فخمة، وأن يضفي عليها عاطفة ولاء كبير لبني أميّة، وكان لهذه الأمور مجتمعة أثرها في بلوغ الخطبة أرقى درجات النجاح.

انتهت المحاضرة الثالثة